مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي وفق إلى إنجاز هذه الدّراسة، ثم وفق إلى صدورها في طبعة وإخراج فاخرين عن شركة العبيكان للأبحاث والتطوير، بعد تردد كثير من الناشرين في شأن طباعتها؛ لما تتصف به من تخصصية وضخامة، وخضوع للشرط العلمي الأكاديمي؛ وما يقتضيه ذلك من الإحالة على المصادر، وكثرة الهوامش؛ إذ كانت في أصلها رسالة ضمن متطلبات درجة الماجستير في الأدب والنقد من جامعة أم القرى. وها هي الطبعة الأولى تنفد في العام الأول لصدورها؛ لتؤكد أنه ما زال للكتاب الجاد قرّاؤه والمهتمون به، وأن دعوى بعض الناشرين عن كساد الكتاب العلمي دعوى تنقصها الدّقة.

وقد حالت كثرة الالتزامات وضيق والوقت، دون العكوف على مراجعة هذه الطبعة مراجعة شاملة ومدققة، مُكتفيًا ببعض التصحيحات هنا وهناك؛ مما وقعت عليه أثناء تصفح الكتاب في أوقات متفرقة، ومعترفًا بفضل أستاذين كريمين سبقا إلى مراجعة تجارب الطبعة الأولى، واستدركا بعض ما كان فاتني عند مراجعتها؛ لأني كنت أقرأ من ذاكرتي لا ممّا هو مكتوب أمامي، فجاء الكتاب في طبعته الأولى سليمًا إلى حدّ كبير، وقد سقط التنويه بجهدهما في الطبعة الأولى سهوًا، وأجدني مدينًا بالتنويه بجهدهما، وهما الصديقان الكريمان: د. عبد الناصر عسّاف (من سوريّا)، ود. عمر حمّودة (من السودان). وقد أضفت إلى هذه الطبعة بعض عناوين بارزة رأيت أهميتها، وجعلت لها فهرسًا تفصيليًّا، ليسهِّل على القارئ تصفح الكتاب، والوقوف على ما يطرحه من مسائل وقضايا، وشفعت الكتاب ببعض الصور ذات الصلة بمادته.

والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب وما بذلته من جهد لإنجازه في ميزان حسناتي، يوم لا ينفع مال ولا بنون، وأن يخلص نيتي من كل رجاء إلا رجاء وجهه الأعلى.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وكتبه
أحمد بن علي آل مريع
ليلة الجمعة: ١٤٢٩/٧/١٥هـ
أبها – حي ذرة – ص ب ٢٠٣٦
aaljooni@hotmail.com

تقديم

معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر

وزير الدولة وعضو مجلس الوزراء

الشيخ علي الطنطاوي رجلٌ محبوبٌ، يدخل القلوب دون استئذان، لما مَنَّ الله به عليه من خفة الروح، وما حباه به من سماحة النفس، وغزارة العلم، وفصاحة اللسان، والبصيرة النَّاقبة في أمور اللغة والبلاغة والأدب، وفوق ذلك الدِّين، ولما جبله الله عليه من فهم طبائع الناس، ومعرفة السبل التي تقرِّب إليهم، وتزيل الحُجب بينه وبينهم.

الشيخ علي الطنطاوي كان متواضعًا مع الناس. يشعرك بلطف لفظه، وحسن استقباله، بأنك صديق اشتاق لرؤيته وكأنه يعرفك معرفة قديمة، وهو في هذا يسير على سجيته، ولا يخرج نفسه عن طبيعتها؛ فلا يتكلف، ولا يعطي فرصة لأن يحكمه ما يحكم الآخرين من لزوم خط واحد في الحديث. وقد رأيناه إذا عنَّت له فكرة، وهو يلقي حديثًا في التلفاز أو في المذياع، فإنه يخرج ممَّا كان فيه إلى هذه الفكرة الضَّيفَة الطارئة؛ فيوفيها حقها ويسهب في ذلك، ثم يعود إلى ما كان فيه، لأنه قد كسر القيود الحديدية التي قيدت غيره، ويجعل هذا القيد طوع أمره، ويكون هذا له وللمعجبين به القاعدة التي يسار عليها، ويبقى المنبوذ هو المعتاد عند غيره.

لم يكن يفعل شيئًا متصنّعًا يضفي عليه هيبة، فهيبته تسبقه إلى قلوب المستمعين، فينصتون وكأنّ على رؤوسهم الطير، ويقبلون ما يلقيه عليهم طائعين مختارين فخورين.

أول معرفتي بالشيخ علي الطنطاوي شخصيًا – رحمه الله – كان في عام: ١٩٤٨م، وأنا أدرس في القاهرة، في جامعة الملك فؤاد (القاهرة فيما بعد)، وكان حينئذ – رحمه الله – كاتبًا منتظمًا في مجلة (الرسالة)، يكتب مقالات ملتهبة عن فلسطين، وهي مقالات كان الناس ينتظرونها بفارغ الصبر، لأنها كانت تهز

المشاعر، لما فيها من منطق وفصاحة، وحسن عرض، وحقائق دامغة، ولأن أمر فلسطين هو الشغل الشاغل للناس جميعا حينئذ والآن.

سمعنا في صيف ذلك العام أنه ناب عن رئيس تحرير " الرسالة " الأستاذ أحمد حسن الزيات، عندما تمتع بإجازته السنوية، وتأكدتُ أنا وزميلي في الدراسة والغرفة، الأخ صالح بن عبد العزيز الجهيمان، أبو عبد الكريم، من نيابته هذه، وأنه موجود في مقر المجلة في حي عابدين، فعزمنا على زيارته، وذهبنا إلى هناك، واستقبلنا – رحمه الله رحمةً واسعةً – استقبال الوالد لأولاده، ونحن طلاب في الجامعة حينئذٍ، وطلب لنا " قهوة تركي" كالمعتاد في مثل هذه الزيارات.

فوجئنا عندما دخلنا إلى المكتب الذي يجلس عليه بلباسه الذي لم نتوقعه، كان لباسه يومئذ لباس مشايخ أهل الشام، بجبَّته وعمامته. وكُنَّا قد رسمنا له في ذهننا صورة تختلف تمامًا عن هذا الواقع. كنا تصورناه "أفندياً" ببنطال وسترةٍ، طويلاً، عملاقًا، ضخمًا، مثل كلماته وأفكاره، فوجدناه شيخًا لا يزيد طوله على طولنا. ولكن الدهشة لم تطل فقد انقطعت بمجرد أن بدأ يتكلم، لأن الدّر كان يتناثر من تلك العبارات الفصيحة، والمعاني الشريفة. وكانت هذه الزيارة بيضة الديك، فلم أره بعدها إلا في المملكة، في جدّه، بعد ما يزيد على خمسين عامًا.

كنت في ذلك اليوم ذاهبًا إلى مبنى التلفاز، لألقي كلمة في برنامج قد تحدد لي، لعلَّه "فكرة اليوم"، فرأيته هناك في انتظار تهيئة الاستديو ليلقي حديثه المعتاد. وكانت لحظة قصيرة، أعدت عليه فيها ذكرى زيارتنا له في القاهرة. وأنا أذكرها لأنه مشهور في تلك الأيام، ولأن تلك الزيارة كانت مجال فخرٍ لي وللأخ صالح الجهيمان، وهو لا يذكرنا لأننا كنّا طلابًا مغمورين، ومن جملة آلاف المعجبين به، وما أكثر من حرصوا على مقابلته حينئذ من أساتذة وطلاب وكُتاب وغيرهم، ولكنه يذكر نيابته عن الأستاذ أحمد حسن الزيات في تلك السنة. وبدأ الحديث معه ممتعًا كما هو متوقع، وكنت أودّ أن يطول، وأن تطول مدة تهيئة الاستديو لكلينا، إلا أن المسؤولين عن برنامجي أخبروني أنهم جاهزون. وكنت مثل بعير أَمَضَّه العطش، فلما وصل المورد صدَّ عنه، وكنت أتمنى في داخل نفسي أنهم نسوني، وتركوني مع الشيخ الفاضل أشنف مسمعي بحديثه العذب، وأملأ ذهني بأفكاره الثرّة.

كان برنامجه – رحمه الله – من البرامج الناجحة، وكانت كثير من المحطات الخارجية تغبط الإذاعة السعودية والتلفاز على ضمانها استمرار مساهمته. وأذكر أنه في وقت من الأوقات في عهد الملك فيصل – رحمه الله – توقف فتعجب من هذا التوقف، لأنه كان يحرص – رحمه الله – على متابعته. ولمَّا علم أن التوقف كان برغبة منه، لأنه؛ انطلاقًا من تواضعه، ظن أنه لم يعد يعطي في أحاديثه إلا ما هو مكرر، فلمَّا بلغته رغبة الملك فيصل في أن يعود؛ لأنه لا يرى فيما يقوله الشيخ علي ما هو مكرر، بل هو من جديد في جديد، لهذه الرغبة عاد. ونرجو للفقيدين الأجر والثواب على هذا، هذا على ما بذل من مجهود في الأحاديث، وهذا في مساهمته في عودة الشيخ علي إلى جمهوره الذي يحبه ويحب أحاديثه.

هذه مقدمة أجعلها سببًا لفرحتي للعمل الذي قام به الأخ الأستاذ أحمد بن علي آل مريع، المحاضر بقسم اللغة العربية، بكلية المعلمين بأبها، وتأليفه كتابًا كاملاً عن ذكريات الشيخ علي الطنطاوي. وسعدتُ بحسن ظنه بي في أن أكتب مقدمة لهذا العمل القيم، ويكفيني متعة أن أقرأ شيئاً كتب بطريقة علمية عن الشيخ علي، وأن أقرأه بتمعن، وتبصر، وأن أقطف ثمرة جهد مضنٍ جاء بالنتيجة الحسنة المرضية المدهشة.

كتابة مقدمة كتاب تقتضي قراءته جيدًا، وبتمعنٍ وتأنٍ، ومراجعة ومقارنة، وترتيب أفكار حتى تتلاءم مع المقدَّم، وهذا يتطلب وقتًا، والوقت مع العمل الرسمي شحيحٌ. ولكن بعض الكتب فيها من الجاذبية ما يجعل المرء ينسى الأعمال الأخرى، ويندمج في هذا الضيف الزائر، وينطلق في الدراسة ناسيًا أن ما يكتبه مقدمة، وللمقدمات حجم يجب أن لا تزيد عليه، وأن لا تكون إلا نافذة يطل منها القارئ إلى الروض الزاهر أمامها.

وموضوع الكتاب مهم، لأهمية الحياة التي يصفها، وللجهد المبذول في الدراسة، وللفائدة المرجوة من ذلك. هذه بعض صفات هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وأمامي منه الآن جزءان، تنوءان بحمل هذه الدراسة الضافية، والمعالجة الوافية، التي تطرق إليها الباحث، ووقف وقته عليها، وبذل جهداً مضنيًا في إخراجها بهذه الصورة المشرقة المشرِّفة. ولا غرو في هذا كله؛ لأن المكتوب عنه شخص ملأ دويّ صوته الدنيا، وكان صوتًا عذبًا، والكاتب مؤهل للكتابة في

مثل هذا الموضوع، والوسيلة نبيلة ترمي إلى الحصول بهذه الدراسة على درجة علمية؛ مما يقتضي إخضاع البحث للوسائل العلمية التي تجعله محل ثقة، ومجال اطمئنان، فهناك خضوع الخطوات لشروط البحث، وهناك المشرف الذي عينه في يقظة دائمة. ومن حسن حظ الباحث أن المشرف على رسالته هذه، رجل حاذق فيما يشرف عليه، ومعروف تبريزه في حقله وتخصصه. يضاف إلى هذا أن البحث أخذ الوقت الكافي الذي يحتاجه مثل هذا **العمل الضخم المضني**، وأن الباحث تحرى الدقة فيما يعالج، ولم يترك بابًا إلا طرقه، ولا حجرًا إلا قلبه وعرف ما تحته، ولا نافذة إلا أطلَّ منها إلى ما وراءها؛ رصد، وناقش، وقارن، ووازن، ثم حكم الحكم المبرر.

وإذا دخلنا مع باب هذا العمل الممتدح نجد أن قراءة الفهرس تُري فكرة الباحث عمومًا وتفصيلاً. ويبرز من هذا دقة التنظيم في التفاصيل مما لا يجعل هناك مزيداً يمكن أن يقال: إن الباحث أهمله، أو غاب عن ذهنه، أو صغر في عينه. والقراءة المتأنية للفهرس قبل كل شيء تكشف الخطة المتقنة التي رسمها الباحث لما في ذهنه عن البحث، والصورة التي سيكون عليها، وقبلها المشرف، وبارك السير في العمل على أساسها، وهي الخطوة الأولى المهمة عادة في التأليف، أو في كتابة رسائل الماجستير أو الدكتوراه.

وكل ما في الخطة يسير على مبادئ، ولهذا علل الباحث ما أقدم عليه، وما أحجم عنه، فابتعاده عن أن تشمل الدراسةَ الموضوعيةَ، واقتصارَها على الناحية الفنية في الذكريات؛ علله: بوجوب مراعاة حجم الرسالة، ومراعاة الوقت المحدد لها. وحسنًا فعل، ويقول عن هذا الاختيار: "يعمق الجانب الأولى والأغنى"، ونحن نرجو، وقد أطمعتنا هذه الرسالة، والنتيجة التي جاءت بها، أن يكون لجانب الدراسة الموضوعية للذِّكريات نصيب من وقته وجهده في المستقبل، ما دام قد وصل حبله بحبل هذا العبقري الفذّ.

ويتصف البحث بالقوة، فالباحث أكمل الجوانب التي يتوقع من باحث في مثل هذا العمل أن يهتم بها، ومنها اتصاله شخصيًّا بالشيخ علي الطنطاوي، وبمن يعرف الشيخ، ويعرف عنه، وبهذا استطاع سدَّ ثغرات ربَّما لا يمكن سدها بما هو مدوّن في الكتب أو المقالات أو الإذاعات. خاصة وأن ما كتب عن هذا الشيخ الجليل لا

يتناسب مع مكانته الدينية والعلمية والأدبية، والتصدي لسدّ النقص هذا يُضفي أهميةً خاصةً على هذه الدراسة.

ومن سمات هذا البحث أن الباحث حرص، بجهد واضح، أن يَجعل القارئ معه في الصورة بأكملها، فأبان له منذ البدء مباني البحث، وكيف تجمعت لبناته وتبلورت لحمته، فمن تمهيد إلى سبعة فصول، مع شرح واف لأسباب اختياره هذا التنظيم. ولهذا يشعر قارئ البحث أن المؤلف أبقي في ذهنه، طوال الوقت، أن هناك قارئًا محاسبًا له، عينه عليه، وذهنه معه، وفكره مركز عليه، فلم يترك للقارئ مجالاً لأن يسأل: لماذا هذا؟! أو ذاك؟! فجاء هو بالجواب شافيًا قبل السؤال. ولن أدخل في تفاصيل الفصول، وإن كان ما تحتها يغري بذلك، ولكن أصول كتابة المقدمات يحذِّر من هذا، لهذا أكتفي بأن أشير أنها تحوي تاريخ العمل مفصلاً تفصيلاً مفيدًا جامعًا مانعًا. وفي المقدمة التي كتبها المؤلف، من التفصيل المفيد جداً ما يجعلها مقدمةً وافيةً لتمثيل طبيعة المقدمات الناجحة. وبهذا فهي لا تحتاج إلى مقدمة مني، ولكن حظّي السعيد جعل الكاتب العزيز يحسن الظن بي، فيشركني معه في رشف رحيق هذه الزهور الفواحة، والورود الزَّكية، وفاءً منه، ونحن زميلا مهنة، في أن يأخذني معه إلى هذا الروض اليانع. وزمالتنا تأتي من أن كلينا صاحب مهنة تدريس، وخدم حقل التربية النبيل، وكلينا متعلق به، وواصل سببه بسببه، فإن كان هو لا يزال يُدرِّس اليوم، فأنا انتهيت من هذا، وعدت طالبًا قارئًا أَدْرُس، وأتمتَّع بما تدفعه المطابع، مما يمكنني من اختيار الدّرر، وما يثري الفكر، ويوسع الثقافة، ويزيد في سعة أفقها.

وأخيراً، لا أريد أن أوحي بالاختصار ثم أنسى نفسي، ويأخذني القلم، بمؤامرة مع الفكر، ومع القلب وما فيه من عاطفة نحو العلم، فأسبح في هذا الفضاء، فمهما قلت، ومهما سطرت فلن أزيد عما ورد بين صفحات هذا السفر، وما فيه حق للقارئ يجب ألا يؤثر عليه فيه. وأُقرّ أن كبح جماح القلم ليس أمراً سهلاً؛ فالكتابُ عن رجل أُعزّه وأُقدّره، شيخ مهم، شيخ مشاع، شيخ كتبه أنوار مضيئة على الرُّفوف، وقد حوى هذا الكتاب عنه دررًا منظومةً، وجوانب براقة. والدراسة انصبت، بمقدرة من كاتب موفق، على الجانب الفني في ذكريات الشيخ علي – رحمة الله –. ويكتمل النبل في القصد أن الباحث

سعودي، والمتحدَّث عنه سوري، وهي لُحمة مباركة تعطي الثقة، وتبعد شبهة التّحيز.

وما يزيد البحث أهمية أنه بحث علمي، لشهادة متميزة، تحت إشراف واع، وجاء طبق تعليمات صارمة. لهذا سعدت أن تكون لي كلمة متواضعة تنوه بالفضل لأهله، وتبارك هذا الجهد الموثَّق المقدر، داعيا الله – سبحانه وتعالى – أن يجعل التوفيق حليف المؤلِّف، وأن تكون هذه الرسالةُ الخيِّرةُ فاتحةً تمهد لرسالة الدكتوراه – إن شاء الله تعالى – ثم لما هو أكثر وأبعد، وأن يمنَّ الله على صاحبها بالصحة والعافية، وأن يرحم الله الشيخ عليًّا رحمة واسعة، ويسكنه فسيح جناته على ما قدم، وعلى ما كان فيه من قدوة حسنة، إنه سميع مجيب.

عبد العزيز الخويطر

١٤٢٥/٤/٢هـ

تقريظ
الدكتور عائض القرني
الداعية الإسلامي المعروف

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

اليوم يُقضى دين الشيخ علي الطنطاوي على الأمة، واليوم يسدد حقه في عنق الأجيال، واليوم تبرأ ذمة القلم من تبعة التنكر والمماطلة والإهمال لعلم من أعلام العلم والأدب، وقمة شامخة من قمم المعرفة والبيان، وكان الذي أدّى الأمانة ورفع اللائمة ألمعي الحسب، ألمعي الأدب، الأستاذ الأديب: أحمد بن علي آل مريع، فجاء إلى هذا المبحث الرصين الثمين وهو كامل العدة، مشبوب الفؤاد، جياش العاطفة، فرصّع آيات الوفاء في لوح العطاء، ودبَّج حروف الحب في سفر المجد، كتب بقلم الإعجاب والمعرفة، ورسم بريشة العارف الوفي، فجاء بحثه قصيدةً عصماء آسرة، ولوحةَ حسنٍ ساحرة، صاحبته في رحلته الماتعة مع سيرة هذا العالم الفقيه، والأديب الفذ، فاستوقفني بتدفق بيانه، وعذوبة ألفاظه، وتناسق جمله، تسعفه في ذلك ذاكرة خلاّبة، وروح متقدة، وهمة صادقة، فصار كتابه ثوبَ حسن موشًّى بخيوط الجمال، وإليذةَ عاشق مطرزة بأبيات الفتون وآهات الشجون، كل كلمة نجمة في سماء الإبداع، وكل جمله أنشودة عذبة في مهرجان الإمتاع، قلَّبتُ عبارته تقليب الدرة في كف الصيرفي، ونشرته بحثه نشر الثوب في يد البزّاز.

أما بطل السيرة وأستاذ المسيرة فهو علي الطنطاوي فحسب، وإذا قلت: علي الطنطاوي حضرت دائرة المعارف، وموسوعة الأدب، وجامعة الفنون، فصرت معه في عالم من المنقول والمعقول، والقديم والحديث، والعلم والأدب، والنثر والشعر، تقرؤه فإذا الآية والحديث، والقصة والمثل، والبيت والحكاية، والنكتة والخاطرة، يضحكك ويبكيك، يطربك ويشجيك، يفرحك ويحزنك، فأنت معه بين بسمة ودمعة، ووصل وهجر، وسِلْم وحرب، يحدِّثك عن الأنبياء والعلماء، والحكماء والشعراء، والملوك والسوقة، والأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والملائكة

والشياطين، يقص عليك أخبار مالك والشافعي، وابن تيمية وابن حزم، وابن سيناء وابن رشد، والفارابي وابن خلدون، والمتنبي وأبي تمام، وفولتير وسارتر، وديكارت وكانت، وشكسبير تولستوي، وإقبال وطاغور، يرتحل بك من برج إيفل إلى تاج محل، ومن هضبة التبت إلى مقاصير الحمراء، ومن ضفاف دجلة إلى روافد الراين، يتحفك بتاريخ العرب ودهاء العجم، وصبر الأتراك، وصمود الأكراد، وسخرية الفرنسيين، وبرود الإنجليز، يجمع لك في مجلس واحد عدل نور الدين، وشجاعة صلاح الدين، وهمة نابليون، وأبهة الناصر في الزهراء، وحنكة معاوية في دمشق، وملك هارون ببغداد، يهدأ فإذا هو رخاء حيث أصاب، ويزبد ويرعد، فإذا هو قاصف من الريح، وعات من الموج، تعيش معه وعظ الحسن البصري، وزهد الثوري، وبديهة إياس، وموسوعية الشعبي، وسخرية برناردشو، وجاذبية غوته، وتصوير هيجو، ينقلك بقوة براعته، وأسر إبداعه، من عالمك الصغير إلى عالمه الكبير، ومن أفقك الضيق إلى أفقه الواسع، ومهما حاولت أن تتماسك أمام أسره وسحره فهيهات سوف تستسلم لسلطان بيانه، وتعلن الطاعة لنور برهانه؛ لأن حديثه يكاد يضيء من بريق نوره ولو لم تمسسه نار ذاكرته، وسوف تعترف بتميُّزه وعمقه وموسوعيته وأصالته.

لم اقرأ لأديب ولا لكاتب معاصر أعذب عبارة، وألطف إشارة، وأحسن لفظاً، وأعظم أسراً، وأبرع كتابةً، وأجمل أسلوباً من علي الطنطاوي، لكأن مقالته صبح تنفس، أو روض أخضر باكرته صبا باردة، أو جنة بربوة أصابها وابل.

قرأت كل كتبه وأعدت الكثير منها، وحفظتُ قطعاً جميلة، وتحفاً غالية منها، وخطبت ببعض إشراقاته، فسالت من سماعها الدموع، ووجلت من بلاغتها القلوب، استفدت من كتبه جلال الحق، وإشراق النفس، وسمو الروح، وحلاوة الجملة، وطلاوة الحرف، قطفت من روضه أينع الثمار، وألذ الطلع، فحديقة علمه صنوان وغير صنوان تُسقى بماء واحد، وبستان أدبه فيه من كل زوج بهيج؛ تفسيراً وحديثاً وأدباً وثقافة، وفي رحاب فنونه حدائق ذات بهجة مما يهيج ويبهر؛ لأنه يغرب ويطرب ويعجب، والمعاصرون من الأدباء طرائق جدد، ومذاهب شتى، منهم عميق الفكر راسخ المعلومة، لكنه قلق العبارة، شاق الطريق، فاتر الأداء، ومنهم البارع في عرضه، الجميل في لفظه، لكن بضاعته مزجاة، وعيبته فارغة، وكفه صفر،

ومنهم خالي الوفاض من المعنى، على جرف هار في المبنى، (حشفاً وسوء كيلة)، أما الشيخ علي الطنطاوي فهو ثرُّ المعرفة، واسع العلم، راسخ الفهم، عميق الفكر، وهو مع ذلك صاحب أبرع مقالة تتصدر الكتاب العربي، والمجلة السائرة، والصحيفة اليومية، سهولةً في أصالة، ويسراً في رصانة، وعذوبةً في عمق:

حُلَلٌ من السحر الجميل وموكبٌ

من روعة الإيحاءِ والإغراءِ

إذا أصّل لنا نسينا ابن سينا، وإذا نظّر سقطت أسهم سقراط، له تفنن الجوزي، وعبقرية ابن حزم، وتبيان الجاحظ، وسلاسة ابن حيان؛ لأنه جرد الأسفار، وطاف الديار، وطوى منشور الزمان، ونشر مطوي المكان، فهو جامع لأحداث العصر، وأنباء كل مصر، إن أحبَّ أطنب وأسهب، وإن شاء أوجز وألغز، مع جودة خاطر ماطر، وصحة نَفَس عاطر، ولا غرابة فهو خليفة مجدد الأدب، وإمام الكتاب مصطفى صادق الرافعي.

والشيخ علي الطنطاوي لا يتركك تقرأ له بقلب خامد، وطرف جامد، وحس هامد، بل يبعث في نفسك شعوراً حياً، فيهزُّ عاطفتك، ويلهب حماسك، ويوقظ روحك هذا إذا كان القارئ له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أما إذا كان ميّت الشعور، يابس الإحساس، مقفر المعرفة، فهذا لا كلام معه: (أموات غير أحياء وما يشعرون أيّان يبعثون).

ما في الخيام أخو وجد نطارحه

حديث نجد ولا خلٌّ نجاريهِ

لقد عرفت الطنطاوي قبل ثلاثين سنة تأبطت كتبه في جبال الجنوب، وتصفّحتُ مقالاته في روابي نجد، وطالعت ذكرياته في مغاني الحجاز، استقبلتني كتبه في دمشق، وهزتني مقالاته في القاهرة، ولقيت قصصه في باريس، وسمعت أخباره في قرطبة، وهو مصري المحتد، دمشقي المولد، حجازي الهوى، نجدي الجوى، صوته في المذياع، وصورته في الشاشة، وأدبه في الصحيفة، وإشراقه في

الكتاب، سافرت وكتبه معي، ونمتُ ورسائله على مخدتي، وكنت مرة في الطائرة إلى جاكرتا، وبين يدي كتابه: (رجال من التاريخ) فأبكاني وأشجاني، وأتيت أرتجل خطبة في جمع بعدما حفظت مقطوعة: (نحن المسلمون) من أول (قصص من التاريخ)، فسمعت نشيج الحضور، بيني وبين الطنطاوي غير نسب الدين العظيم، والمعتقد الحق صفات متقاربة متجاذبة مع اعترافي بفضله وتقدمه وسابقيته، فقد حببَّني في الأدب شعراً ونثراً، على نزعة فطرية سابقة، وولع قديم وحنين دائم، (فالتقى الماء على أمر قد قُدر).

وما شرقي بالماء إلا تذكراً

لماء به أهل الحبيب نزولُ

وشجعني على الموسوعيّة وتعدد الفنون والضرب في كل غنيمة بسهم وهبوط وِدْيان المعرفة، وشحذ ما عندي من طبع دعوب، ومزاح متأصل، ونكتة منكوتة في الدم جعلتني أعجب بطرائفه ولطائفه، وأضحك معه وأحفظ كما يحفظ مما تخف له الروح، ويهش له الخاطر، ولله هو؛ مواهب متعددة، وروح متجددة، نهج حنيفي، ومذهبي حنفي، وخلق أحنفي، يكاد سنا برق لموعه يذهب بأبصار حساده.

وحرصتُ على لقاء الشيخ الطنطاوي وتمنيتُ ذلك، وقبل أن ألقاه بأشهر كنت ألقي درس السبت بأبها في جمع من الناس، فوصلتني إشاعة موته، وصدّق ذلك بعضُ الأصدقاء وقوّوها عندي فأخبرت الناس بموته وهو حي يُرزق، وترحّمتُ عليه وغسَّلته وكفَّنته وصلَّيْت عليه ودفنته وبكيتُ.. فلما انتهى الدرس ثبت أن الشيخ علي لم يمت، وأنه لا يزال مصرّاً على الحياة على رغم أنوفنا!! ولو كانت تنطلي عليه الحيلة لصدَّقنا ومات، فصار بكاؤنا عليه هباءً منثوراً. وزرته بمكة في بيته بالعزيزية، وعرّفه صاحبه بي، وقد سمع ببعض أشرطتي واستشهادي بكلامه، فهشَّ وبشَّ، وحيَّا ورحّب، وقال لي: أنت الذي أماتني قبل أن أموت؟! ثم استشهد ببيت المتنبي:

يا كم دفنتُ وياكم متُ عندكم

ثم انتفضتُ فزال القبرُ والكفنُ

ومازحني وداعبني ثم حدثنا بشيء من ذكرياته المشجية، فبكى مرتين وهو يقص علينا أحسن قصصه، بكى حينما تذكر زميله وصديقه الكاتب اللامع والداعية الصادق سيد قطب – رحمه الله – وقال والدمع يغسل خده: كان خيراً مني وأفضل مني وأنفع مني ثم تنهَّد وترحم عليه.

ثم بكى لما ذكر ابنته بنان – رحمها الله – التي قُتلت بألمانيا، فجادت عيناه بأحر وأصدق الدموع على فلذة كبده، وصنو روحه، فكان دمعه أصدق خطبة قرأتها، وأعظم موعظة سمعتها، حرّم الله تلك العيون على النار، وآنس الله تلك الجفون بصحبة الأبرار.

وكل ما ذكرته عن الشيخ علي الطنطاوي عظيم ويستحق عليه التكريم، لكن أعظم من سعة علمه وكثرة فنونه ودائرة معارفه أنه قد رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وهنا عظمة الإنسان، وغاية نبله، وذروة كماله البشري، حيث يبارك في علمه، ويصلح عمله، ويرتفع ذكره، ويستقيم منهجه، وتطيب كلماته، وتعذب عبارته، ويحلو أدبه، وهذا بعينه الذي حببنا في شيخ الجيل، وأستاذ الأدب، وكاتب العصر، علي الطنطاوي.

ألا فتَّباً وسحقاً لمن عقَّ دينه، ونسي ربّه، وكتم شهادة عنده من الله، وألغى الدليل، ورفض المحجة البيضاء، وتدثر بلباس الزور، وتزمل برداء الغرور، فهو إنسان في فهم ثور، (إنه ظن أن لن يحور)

فلا يلوم لائم تعلق الجيل المؤمن، والشباب الصادق بهذا الأستاذ الجهبذ، وهذا العلم الأعجوبة؛ لأنهم وجدوا فيه الأمانة والإيمان مع ورع النفس، وطهر الضمير، وعفة القلم، وصفاء الفكر، أما المرتزقة الآثمون المفلسون في عالم القيم (فتعساً لهم وأضلَّ أعمالهم)، نتاجهم سراب بقيعة، وحصيلتهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، صار ذمهم شهادة على كمال من جرحوه، وأصبحت تزكيتهم وصمةَ عار لمن مدحوه.

إنني في هذا التقريظ أنوب عن أمة الضاد، وحملة الرسالة لأقدم أنبل الشكر وأصدقه وأكرمه وأرقه لمؤلف هذا الكتاب، ومسطّر هذا البحث؛ لأنه قد أعفانا من مشقة التنقيب والبحث الدقيق، والتتبع الأمين لسيرة هذا العالم الفقيه الأديب؛

بما خطه من سفر موثَّق أمين صادق، في ثوبٍ قشيبٍ، نُسج بخيوط التّجرد والإنصاف، ولقد رحَّبت بتقريظ كتابه ترحيب من تاقت نفسه لمآثر وأخبار الشيخ علي الطنطاوي، تقبلت هذا البحث بقبول حسن تقبل الوالد لأعز أبنائه، والضال الواجد لضالته المنشودة، وأخذت أرتشف سلسبيله البارد على الروح ترشُّف الظمآن زلال ماء بارد من ينبوع صاف تمده عين يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً.

وكنت أحدث نفسي كثيراً بالكتابة عنه، فصرت كما قال الأول: هممت ولم أفعل وكدت وليتني، أقدم وأحجم في تقديم عمل موثق، وسيرة عطرة لهذه القمة العلمية الأدبية الشامخة، فأعظمُ من نَصْب التذكار، وأوسمة الشرف الثناءُ الحسن، ولسان الصدق في الآخرين، فذكْرُ الفتى عمره الثاني، والمرء حديثٌ جميل بعده فحسب.

أما وقد خرج هذا العمل المبارك من النور إلى النور (نور على نور)، فشفى وكفى، فليهدأ من نوى أن يكتب، وليسكن من حدَّث نفسه أن يبحث، فلا طيب بعد عروس، وقطعت جهيزة قول كل خطيب، وفي طلعة البدر ما يغنيك عن زحل، وإذا لم يأت عمل مثل هذا العمل في إتقانه ودقته وانسياقه وسياقه، ونصاعته وبراعته، وفصاحته وملاحته، فليكسر القلم، ولتمزق القراطيس:

هو الجدُ حتى تفضل العين أختها

وحتى يكون اليوم لليوم سيِّدا

د. عائض القرني

١٤٢٥/٢/٢٣هـ

المقدِّمة

«لاشك أن هذا العنوان وإن تقلص قليلاً يزيد في العبء الملقى على عاتق الدراسة، إذ يصبح مطلوباً منها العمق، والبحث الجاد عن مصادر المعلومة، ومحاكمة الظاهرة الفنية من خلال سياقاتها الثقافية والفنية والاجتماعية، أي مطلوب منها أن تُغْنِي ذاتها بكثير من الأسئلة المتخصصة، مستحضرة جوانب التميز في ثقافة الكاتب وتكوينه النفسي والاجتماعي..».

المؤلف

المقدمة

الحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام التامان الأكملان على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اقتدى بأثره ولزم هديه أما بعد:

أكثر من اثنتين وسبعين سنة قضاها الشيخ علي الطنطاوي من عمره المديد، وهو يؤلف ويكتب، ويرتقي أعواد المنابر، يخطب في جموع الناس، ويهتف من خلال الإذاعات العربية، ويُحدث عبر أحد أشهر تلفزيوناتها، يمتع الناس بالكلمة الشاعرة البديعة، ويدعوهم بالكلمة الطيبة المثمرة، ويدلهم بالمصارحة الدافئة إلى عيوبهم الخفية والظاهرة، ويُحذِّرهم من الاندفاع الأعمى وراء أشواقهم فيقلدون الغرب، ويتلهون بقشور الحضارة وسقطها عن أهداف أسمى وأعز، ويتشاغلون برفاهية المدنيَّة عن إدراك مواطن ضعفها وعجزها، وأسباب وجودها وسر امتلاك الآخرين لها، وإضاعة المسلمين لمكان الصدارة فيها.

إذ كان الطنطاوي من الأدباء الذين أخذوا على أنفسهم العهد بالقيام بمهمة الرِّيادة الفعلية لأمتهم، ومشاركتها قضاياها ومشكلاتها في صدق الأديب المسلم والتزامه، ووعيه الدينيّ البصير، وفكره المستبين، يشهد بذلك تاريخه الحافل بالمواقف المشرفة في مرحلة كاد فيها العرب والمسلمون يفقدون كثيراً من أسباب توازنهم؛ متأثرين بحالة الانبهار الحضاري وما تبعها من السعي غير الواعي وراء الوافد الغريب، والعجز عن التفكير المنطقي الذي يدرك نقاط الائتلاف والاختلاف، ويربط بين الأسباب والمسببات، ويَنفُذ بشفافية عبر حجب الزمان فينتقي المفيد ويدع الضار؛ غير أن اللّه قيض لدينه من ينصره، وللغة كتابه من يحفظها ويردها فتية شامخة. وها هي ذي صحف تلك الفترة من أمثال: (المقتبس) و(فتى العرب) و(ألف باء) و(الحياة) و(الأيام) و(اليوم) و(النصر) و(الرسالة) و(الثقافة)... إلخ لا تخلو من صولاتٍ وجولات ومشاركات أدبية وفكرية واجتماعية للأديب الشاب آنذاك خاض غمارها راغباً راضياً تارة، ومكرهاً خائفاً تارة أخرى

حرصاً على دينه، وحفاظاً على عقيدته، وغيرةً على أخلاق أُمَّتِه، وأداء لواجبه، الذي التزمه تجاه ربه ونفسه وبني ملته.

وليس من الظلم ولا التعدي على الحقيقة – عند البصير المطلع على جهاد الطنطاوي وسيرته – أن يُقال: إنه كان من كبار الكتاب والأدباء والدُّعاة والمفكرين والإعلاميين الذين أنجبتهم الأمة العربية والإسلامية في هذا العصر الحديث.

والطنطاوي يملك قلماً أُشرب الكثير من روعة القرآن الكريم وجمال نظمه، وبديع تأليفه، كما تجد في أسلوبه شذى عطراً من عبق النبوة، وروحاً وريحاً من هدي المصطفى ﷺ في قيمه وفكره وتشييد صوره، وفي بناء جمله وألفاظه؛ فهو – بشهادة الكثيرين – يدل عليه كما يدل الشيء على نفسه لا يجاريه فيه أحد. ولا ريب فمن رآه وهو يكتب، أو سمعه وهو يتحدث أو يُملي، ومن جلس إليه، أو قعد يتفيَّأُ دوحة أدبه ساعةً من ليل أو نهار، وجد الرجل على سعة علمه وجلال قدره وموسوعيَّة ثقافته قريباً منه بقدر ما الفنان قريب من إبداعه وفنه.. يصوغ جمله وحروفه وكأنما يسقيها من روحه ودمه وعصبه.

وقد كتب في فنون النثر جميعاً، فكتب في المقالة وأجاد، وكتب في القصة التاريخية والاجتماعية وقصص الناشئة (الأطفال)، وأدب الرحلة، وسيرة الغير، وسيرة الذات، والتاريخ والفقه المُتأَدبين، والفكر والاجتماع والتربية، وله خطب كثيرة، وأحاديث عبر وسائل الإعلام في فترة مبكرة جداً من دخولها إلى عالمنا العربي بعضها مرتجل وبعضها مكتوب، وكتب في الرواية وفي المسرحية بقلة، وأخرج بعض ما كتبه على خشبة المسرح، لكن الاستعمار منعه من نشر بعض ما كتب في فورة الشباب. وقد احتفظ لنا بتجربة مسرحية وحيدة أودعها كتابه (قصص من التاريخ)، وقد بلغت مؤلفاته المنشورة وغير المنشورة أكثر من خمسين كتاباً (٥٠) ما بين كتب مستقلة، ومقالات مجموعة مما نشر، ورسائل ومحاضرات، ومازالت دار المنارة تواصل مشكورة جمع ما تناثر من مقالاته، ونشر ما تبقى من مؤلفاته. على أن الطنطاوي ظل يمانع نشر بعض كتبه التي كتبها بأعصاب الشباب – كما يقول – ولا يرضى عنها الآن ليس في جانبها الأُسلوبي، فالطنطاوي لا يستحي من طبيعة التطور البشري الذي يمس الأُسلوب فيما يمس،

ولكنه يمانع أشد الممانعة نشر بعض المعاني والأفكار التي رجع عنها، أو كان يرى أنها غير صالحة لهذا الزمان، مثل كتابه (الهيثميات) و(بشار بن برد) ومثل كتابه (مناظرات وردود)[1]، وهذا يدل دلالة واضحة جليلة على صدقٍ وصراحةٍ مع النفس، وإيمانٍ بأن الأديب هو رائد أمته، وأنه مسئول تجاه اللّه ثم الناس عما خطه قلمه، وما رغّب فيه لسانه ودعا إليه.

ولقد نظرت في كثير من الدراسات العربية المعاصرة – حتى التي رصدت الأدب الشامي – فما كدت أجد لهذا الأديب ذكراً ينفي عن أدبه الجحود والنسيان ويبرز قيمته الفكرية والفنية بما هو له أهل؛ إنما يذكر – حين يذكر – على استحياء، ويمرُّ اسمه بين الأسماء، فلا يشار إليه مزيد إشارة ولا يُتوقف عنده كما يُتوقف عند غيره، ممن هم أقل منه شفافية نفس، وعمق حس، ونبض حياة، واكتمال أداة. وعلمت إذ ذاك مبلغ الظلم الذي وقع على هذا الأديب، أو التجاهل الذي أحاط بأدبه ونثره، وسد المنافذ إلى دراسته أو كاد كما أحاط من قبل بكثيرين.

ولكن لا يلبث أن يسطع نور هذا الأدب من جديد، لأن سنة اللّه قد اقتضت أن يبقى ما ينفع الناس أما ما سواه فيوشك عما قليل أن يذهب جفاء.. وكم من كلمة صادقة لا مست شغاف نفس طاهرة فآتت أُكلها بعد حين بإذن ربها، وكذلك يصرف اللّه آياته لقوم يعقلون.

وقد ألفت الشيخ كما يألف الأطفال من يُطل عليهم فيبادلهم التحية ويحدثهم ويتبسَّط معهم ألفته من خلال الشاشة الصغيرة قبل أن أعرف القراءة والكتابة شيخاً وقوراً عليه دلائل التقى والصلاح – ولا أزكيه على اللّه، هو أعلم بمن اتقى – يحفُّه جلال العلم وبهاء الطلعة وهيبة السن، تظهر عيناه الوادعتان من خلف نظارته السوداء، وهما تعلوان وتنحدران تارة إلى ساعته، وأخرى إلى الأوراق المتناثرة أمامه، وثالثة إلى مشاهديه في منازلهم، فيمضي بيننا وقتاً قصيراً ولكنه مفيد. كنت أفهم

---

(١) هذا الكتاب الأخير جمعه من مقالات صحفية متفرقة نشرها في هيئة معارك وخصومات أدبية، ولكنه رفض نشر الكتاب لأسباب نذكرها عند الحديث عن نتاجه، أما الكتابان السابقان، فقد كتبهما ونشرهما بصورة كاملة في بداية عهده بالكتابة.

منه على حداثة سني وقلة ما أمتلكه من مفردات آنذاك، في حين أعجز عن فهم ما يقوله آخرون على جلالة علمهم وعظم أحلامهم.

كبرت وعرفت من بعد، أن العظمة الحقة والنجاح الأكبر يكمنان في الحياة و(البساطة) أن تكون حياً فلا تصب نفسك في قالب يحجُبُكَ عن الناس أو يحجمك فلا تعدوه، (بسيطاً) تخاطب الناس بما يعقلون، أن تكون عظيماً في نفسك، قريباً من غيرك (فتثري) الناس بثرائك، وتتألفهم بأدبك وتواضعك.

لهذا وجدت نفسي منذ نعومة أظفاري شغفاً بما كتبه علي الطنطاوي وأذكر أن والدي كان يحتفظ في مكتبته بنسخة من كتاب الشيخ (تعريف عام بدين الإسلام) وهذه النسخة عامة لأهل البيت ومن يفد عليهم يطالعها من يشاء. ونسخة من كتاب الشيخ (في أندونيسيا) في طبعته الأولى وكان هذا الكتاب خاصاً بأبي لا يطالعه أحد غيره، فلما كبرت وكَوَّنتُ لي مكتبة أهدى إليَّ الكتاب، ومازلت أحتفظ به في مكتبتي بطبعته القديمة وأوراقه الصفراء، التي أصابها الزمن فأبلى جدتها وعبث بصفحاتها، وعليه إهداء أبي وفقه الله.

لعل كل ذلك دفعني إلى أن أكتب عن بعض الجوانب في أدب الرجل منذ وقت مبكر، وأنا طالب في بدايات دراستي الجامعية فنشرت بعضها آنذاك ومازلت أحتفظ ببعضها حتى اليوم. ولعل ذلك دفعني أيضاً إلى أن أُقرر على طلبتي في كلية المعلمين بأبها حين أسند إليَّ تدريس مادة المهارات اللغوية بعض كتبه مثل (رجال من التاريخ) و(قصص من التاريخ) و(فكر ومباحث). ذلك أني كنت أرغب أن أنبه الناشئة إلى أدب مؤمن صادق، يدعو إلى الفضيلة وينهى عن الرذيلة، ويستشرف لهذه الأمة ولأجيالها القادمة مكامن العزة والفخار والمجد في أداء بياني راق. وها هي ذي فرصة يأْتلقُ وميضها في سماء الواقع تُجدِّد لي الأمل في وقفة تطول مع أدب الشيخ علي الطنطاوي وفكره...

غير أن أديباً مثل علي الطنطاوي متشعب النّتَاج متعدد الفنون لا يمكن بحال أن يدرس تحت ذلك العنوان التقليدي (علي الطنطاوي أديباً) أو (علي الطنطاوي ناثراً) إلا إذا كنت كمن يطوف بالديار لا ينزل فيها وبالمنازل لا يدخلها، وماراء كمن سمع.. فرأيت أن أتجه إلى دراسة فن من الفنون النثرية التي كتب فيها وأجاد

ورأيت أن أقصر دراستي على كتاب (ذكريات علي الطنطاوي) دون غيره من نتاج الرجل، وإن أفدت من ذلك للأسباب التالية:

أ) وفرة المادة وخصوبتها فذكرياته تقع في نحو ألفين وخمسمائة صفحة (٢٥٠٠) صفحة مُجَزَّأةً على ثمانية أجزاء مما يجعلها مناسبة لأطروحة الماجستير.

ب) لاحظت أن (ذكريات علي الطنطاوي) وهي آخر ما كتب أقرب ما تكون لصوقاً بصاحبها، إذ هي قطعة من نفسه ضمنها أيامه ولياليه، وعلى صدر صفحاتها تموج أفراحه وأتراحه، وخوفه وأمنه، وغضبه ورضاه وقوته وضعفه... وكل ذلك يجيء بعفوية لا صخب فيها، يسير على سجيته التي طبع عليها، لا يتكلف فيها أسلوباً، ولم يجر فيها على طريقة أحد من قبله. وإنما مضى في (ذكرياته) بعد أن أثقلته الأيام شأن المصدور إذ ينفث والموجوع حين يئن، تتصاعد زفراته من صدره دون واسطة أو ترجمان، فجاءت طنطاوية المعاني والمعاناة... طنطاوية البناء والأُسلوب، فيها من روحه وجسده، فهي صفوة الصفوة وخلاصة التجربة بعد ما تساقط عنها ما علق بها من الشوائب، وما تدثرت به من الزينة والبهرج..

جـ) ولذكريات علي الطنطاوي أهمية خاصة إلى قيمتها الأدبية من خلال ما تعرضه لنا من الصور التعبيرية المشرقة، فهي وثيقة مهمة تكشف أحوال الناس المختلفة سياسية وثقافية واجتماعية وأدبية ودينية منذ أواخر العقد الثاني من هذا القرن الميلادي (العشرين) الذي يوشك على الرحيل...

د) على أن ثمة سبباً آخر يدعوني إلى دراسة ذكريات علي الطنطاوي وهو دخولها ضمن ما يُسمى بأدب البحث عن الذات أو جنس السيرة الأدبية. وهذه الفنون لم تحظ بعناية الباحثين مثلما هو الحال مع القصة والرواية والمقالة، وقد حفزني ذلك إلى دراسة كتاب (ذكريات علي الطنطاوي).

وكنت قد سجلت العنوان أول الأمر على هذه الصورة: (**ذكريات علي الطنطاوي: دراسة موضوعية وفنية**) وما إن مضيت في جمع المادة وشرعت في كتابة البحث، حتى ظهر لي أن من الخير مراعاةً لحجم الرسالة وللمدة الزمانية، وتوجيهاً للعناية والجهد إلى ما يعمق الجانب الأولى والأغنى؛ ورأيت بعد مشاورة المشرف، أن

يتفرغ البحث للجانب الفني في الكتاب ويدرسه، خاصّةً أنّ ذلك التوجه لا يلغي الدراسة الموضوعية بل لا (يُهمِّشها) ولكن يستثمرها ليس على أساس أنها وحدة مستقلة تُنسج من أجلها الفصول، ولكن تُسَخَّر للتجربة الفنية نفسها، فيدرس منها ما ينير دروب الدراسة الفنية، أويعلل لها، أويفتح مغاليقها؛ وبذلك أصبح العنوان: **(ذكريات علي الطنطاوي: دراسة فنية)**.

ولا شك أن هذا العنوان وإن تقلص قليلاً يزيد في العبء الملقى على عاتق الدراسة، إذ يصبح مطلوباً منها العمق، والبحث الجاد عن مصادر المعلومة، ومحاكمة الظاهرة الفنية من خلال سياقاتها الثقافية والفنية والاجتماعية، أي مطلوب منها أن تُغْنِي ذاتها بكثير من الأسئلة المتخصصة، مستحضرة جوانب التميز في ثقافة الكاتب وتكوينه النفسي والاجتماعي، وكثير من تلك الأسئلة كان يمكن أن تغض عنها طرفها، لو أبقيت على العنوان في صورته الأولى. وقد رأيتُ تغيير عنوان الرسالة عند نشرها إلى: "**علي الطنطاوي.. كان يوم كُنْتُ: صناعةُ الفقهِ والأدبِ**" وهو عنوان وثيق الصلة بطبيعة الدراسة المعنية بالأداء الفني والتقني من جهة، وبمحتوى كتاب الذكريات، وبنهج صاحبه الشيخ علي الطنطاوي؛ المصنوع على عيني: الفقه والأدب.

هذا العبء يتضاعف إذا عرفنا أن أديبنا الطنطاوي لم يحظ بدراسة أدبية وفنية جادة – بحسب ما اطلعتُ عليه – وكل ما بين يدي الباحث عبارة عن مقالات أو مباحث صغيرة تهتم بالجانب التاريخي، أو كُتِبتْ في صورة تعقيبات إخوانية على بعض ما كان يقدمه في برنامجيه (نور وهداية) و(مسائل ومشكلات)[1].

وكان لابد أن يتخطى الباحث عقبة أخرى وهي تحديد الجنس الأدبي الذي

---

(١) باستثناء كل من دراسة شاكر مصطفى في كتابه:"القصة في سوريّة حتى الحرب العالمية الثانية"، ودراسة الدكتور عبدالحميد شعبان العلمية المنشورة في مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، بعنوان: "من مدرسة البيان العربي الأديب السوري علي الطنطاوي ١٤١١هـ/١٩٩١م" فقد تناول الأول جانب القصة التاريخية لدى أَديبنا بصورة عجلى، ولكنها أوقفت القارئ على نقاط مهمّة في ذلك الصدد، وتناول الآخر السمات الفنية العامّة لدى الطنطاوي. واتصفت دراسته لطبيعة البحث والعنوان ومكان النشر بالمسح الشمولي السريع والنتائج العامّة، ولكنها جهد متميز ومشكور، حاز قصب السبق. لكنَّ أيّاً منهما لم يتعرض للذكريات.

تنتمي إليه (ذكريات علي الطنطاوي) فتحديد كهذا – وهو أمر ضروري جداً للرسالة حتى تكون أدواتها ووسائلها وأحكامها دقيقة وصادقة – يتطلب وقوفاً على فن السيرة الذاتية وفهماً دقيقاً له، وقد وجد في سبيل تحقيق ذلك عنتاً كبيراً، فكثيرُ من الدراسات التي باشرت فن السيرة الذاتية يُهمل اقتراح تعريف واضح لها، وكثير منها يخلط فيما بينها وبين أجناس تعبيرية أخرى، وبعض تلك الدراسات يربط السيرة الذاتية بالإدراك الروائي، ومثل ذلك لا يوفر تصوراً واضحاً للدراسة لتمضي في مقصدها الرئيس.

على أن أغلب تلك الدراسات التي اعتنت بفن السيرة الذاتية تنحو منحىً مصطبغاً بالثقافة الغربية وما فيها من قيم ومواضعات، ليس على الصعيد التقني / الفني فحسب، ولكن على المستوى الفكري أيضاً، ولاسيما في جانب التنظير للصدق ومبدأ الاعتراف، وحديث المرء عن حسنات نفسه. وكذلك الأمر بالنسبة لأغلب الدراسات التي اعتنت بالسخرية والاستطراد والفكاهة فهي إما أنّ تخلط بين السخرية والفكاهة، أو بين السخرية والهجاء، أو تغفل عن التصور المؤصّل لهذه الفنون، أو تصوب ضوء النقد و(التقييم) من خلال زاوية واحدة، كـ: الوحدة الموضوعية وترابط العمل الأدبي وتماسكه عند تناول ظاهرة الاستطراد، ولا تستحضر أشياء أخرى لا تقل أهمية عن الوحدة الموضوعية.. **فاتجهت الدراسة إلى الاحتفاء بمبدأ التنظير والتأصيل أيضاً**، وهي مهمة يعتز بها الباحث ويراها ثمرةً من ثمار الثقافة التراثيّة والشخصية الإسلامية، التي ينبغي أن تتوافر لدينا في كل منحىً من مناحي الدراسة، ومنشطٍ من مناشط البحث.

والطنطاوي من الأدباء الذين تحتاج دراستهم إلى مزيد تأنٍ وتركيز لخصوصية تلحقه في شخصيته، وتجربته الأدبية وثقافته، ومجتمعه وعصره؛ فهو أديب فقيه، كثير النتاج، مُوزَّع الاهتمامات، كثير التحولات والتقلبات، تمتد مشاركته منذ عام ١٩٢٦م إلى اليوم، وكون الدراسة تتوجه بالعناية إلى كتاب واحد دون سائر نتاجه، لا يعني تناوله بمعزل عن أدبه وظروفه، وتجربته وفلسفته، وفهمه لوظيفة الأدب والمتأدب، وإنْ كان ذلك لا يظهر في هذه الرسالة بشكل مباشر، أي منصوص عليه إلا في مواضع قليلة، فقد كان حاضراً في ذهن الباحث يوجهه وهو يقف أمام كل ظاهرة من الظواهر، ويرشده عند المحاكمة.

وقد دفعني البحث إلى مقابلة الشيخ علي الطنطاوي لأطرح عليه تساؤلاتي، ولأعرف رأيه في بعض استنتاجات الدراسة التي خرجتُ بها، حين لا تترجح لدي بوجه قوي، كأن تكون مما يمس الجانب الغائب من ثقافته وأدبه وفكره وحياته، حتى لا تكون إجابات الرسالة وأحكامها ونتائجها فرضيات غير محققة؛ فأحسن الشيخ استقبالي، وتحمّل نزق الأسئلة، وإلحاح الباحث غير أن شيخوخته، وحالته الصحية، وطبيعة أسلوبه في الحديث الذي يشبه كتابته من حيث كثرة الاستطرادات والمواعظ والمفاكهات والاستشهادات لم تسمح لي بالاسترسال فيما أريد؛ فكنت أعوض ذلك بكثرة التردد عليه أسأل اللّه أن يثيبه عني جزيل الثواب.

وحاولت الاتّصال بمن لهم صلة بالطنطاوي أو معرفة بأدبه **كالشيخ محمد نادر بن تيسير حتاحت** وهو صهر الطنطاوي وصديقه في شيخوخته، وصاحب دار المنارة والمفوض بطباعة كتبه ونشرها، **والشيخ أبي زياد طارق بن زكريا الحاج**، فأخذت منهما كثيراً عن طباع الكاتب ومزاجه، وطريقة كتابته للذكريات وحالته النفسية إبَّان ذلك، وقد أحسنا الظن برجلين سوريين فأرشداني إلى الإفادة منهما ومقابلتهما، **ولما جلست إلى أحدهما** وجدته على معرفة بالمجلات والصحف والجرائد التي نشر فيها الكاتب مقالاته في بداية عمله بالكتابة، وحاولت الوصول إلى شيء منها مما لايتهيّأ الوقوع عليها إلا بالسفر فوجدته لا يجود بذلك، وعرفت أنه ممن يضن بالمعلومة المشاعة فضلاً عن الحكمة الغائبة، ووجدتني أنثر إليه بضاعتي فلا يزيده ذلك إلا استمساكاً بما لديه ففررت منه، **وأما الآخر** فقد واعدني ثلاث مرات وأخلف فيهن جميعاً، ولم يكلف نفسه الاعتذار أو تجديد الموعد برغم أني قد تركت له ورقة فيها أرقام هواتفي؛ فانصرفت عنه.

وقابلت الأديب الشامي **د. محمد منير الغضبان** لأني علمت أنه تقدم بطلب تسجيل رسالة علمية عن الطنطاوي بعنوان: (علي الطنطاوي حياته وأدبه) لجامعة في السودان ولكن رُفض طلبه لحياة الأديب، وكان غرضي الوحيد من لقائه الوصول إلى قناعة بأن الطنطاوي لم يدرس في دراسة أكاديمية أو غيرها في الشام، فأكد لي – كما أكد لي الطنطاوي من قبل والسيد حتاحت – أن أدبه لم يُبحث أكاديمياً في الشام ولا في غيره، وأنه ليس هنالك دراسة مستوعبة اعتنت بنتاجه،

وساعدني في سبيل التأكد مرة أخرى عبر بعض مراكز البحث العلمي، أحسن الله إليه[١].

وهاتفتُ الأستاذ عبد الله رواس المخرج التلفزيوني لبرامج الطنطاوي، وكنت أسأل الأساتذة في قسم الأدب والبلاغة والنقد بكلية اللغة العربية، وأغشى أحياناً مجالسهم دون حرج فعذراً أرجو أيها الأساتذة الكرام فقديماً قيل: «**لا يتعلم العلم مستحٍ ولا متكبّر**»[٢].

وقد استقر رأي الباحث على أن يكون البحث في: مدخل وسبعة فصول، وفي **المدخل (الكاتب والكتاب)** عرضتُ لموضوعين، أولهما: حياة الكاتب علي الطنطاوي وآثاره، وثانيهما: ذكريات علي الطنطاوي نظرة عامة، تناولت ضمن النظرة العامّة أربعة جوانب مهمة يجب أن يعرفها القارئ قبل أن يدلف إلى الدراسة الفنية وهي: قصة الكتاب، وكيف بدأت فكرته، وأين تم نشره؟ ومتى؟ وما محتواه؟ وحالة الكاتب النفسية والذهنية والعمرية إبان كتابته. وفي الجانب الثاني تحدثتُ عن (أهميتها)، وفي الجانب الثالث وقفتُ على (الدوافع إلى كتابة الذكريات)، وقد ظهر لي أن هنالك أسباباً أخرى غير ما ذكره دفعته إلى أن يكتب سيرته، وقد أعانني البحث عن الدوافع على تفهم موقف الأديب، وساعدني على معرفة سبب تفضيل هذا الأسلوب على ذاك. وفي الرابع: وقفت على (تجنيس الذكريات) ورأيت أنها تندرج ضمن أدب السيرة، وإن تجاذبها أكثر من لون من ألوان أَدب البحث عن الذات[٣] أو جنس السيرة. وأَسَّستُ حكمي هذا على: بعض الأسس الفنية والتقنية،

---

(١) علمتُ بعد الفراغ من المناقشة بمدة أن هنالك رسالة تقدم بها الباحث الهندي **الدكتور عبدالله فارق** لجامعة عليكرة ١٩٩٥م في الهند لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، بعنوان: "**علي الطنطاوي مساهمته في تطوير النثر العربي الحديث**" فتحمست لقراءتها بل لما هو أكثر من القراءة؛ إذ تمنيت على الشيخ الفاضل محمد نادر بن تيسير حتاحت أن يمكنني من إعدادها وتقديمها للقارئ العربي، وفاء للشيخ رحمه الله، ولكني صدمت حين اطلعت عليها في أواخر عام ١٤٢٠هـ فقد وجدتها رسالة بيّنة الضعف في لغتها، سقيمة في بنائها المنهجي، عاجزةً عن إثارة التساؤلات، كسيحة لم تصل إلى أية نتائج خاصة يمكن الإشارة إليها..

(٢) ذكره الإمام البخاري في صحيحه (٦٠/١) من **قول مجاهد** رحمه الله.

(٣) استخدم الباحث مصطلح (أدب البحث عن الذات) وفق نسق خاص بالدراسة، بعيداً عن سياقاته الاجتماعية والفلسفية التي ارتبطت به، وإن أفاد من ارتباطه بـ (الهوية).

وأكَّدته بالرجوع إلى وجهة نظر الكاتب نفسه؛ فقد وجدته يصف ذكرياته بأنها (السيرة الشخصية) أو (قصة حياتي – أحداث حياتي).

وهكذا دخلتُ إلى صلب الدراسة الفنية، فتناولت في الفصل الأول: **(التكنيك / التقنية الفنية للسرد والحوار)** ضَمَّنتُه الحديث عن طبيعة السرد، وطرائقه، ووجهة نظر السّارد / الراوي في سياقة الأحداث وتقديم الحياة، والقالب والإطار الذي اختير للسيرة، كما تحدثتُ عن المكان والزمان، وأشرتُ إلى طبيعة الحوار وأنواعه وسماته.

وعقدت الفصل الثاني لموضوع **(الحقيقة والخيال)** وبدأتُ بمحاولة الإجابة عن سؤال عام، هو: هل الصدق متحقق في الفنون المنتمية لأدب البحث عن الذات؟ وما الصعوبات التي تقف دون تحققه؟! وجعلت من كل ذلك مدخلاً لدراسة الحقيقة والخيال في ذكريات الطنطاوي، وأشرتُ إلى النظري والتطبيقي من هذه القضية، وإلى أبرز المعوقات التي كادت تحول بين الكاتب وغايته النبيلة، ووقفتُ متأنِّياً بعض الشيء على تلك الصورالعديدة للصدق في الذكريات.

أما الفصل الثالث فكان مخصصاً لظاهرة **(الاستطراد)** فوضَّحت الرؤية التي انطلق منها في محاكمة هذه الظاهرة ووزنها، وجلّيت أسبابها وأقسامها، وأكدت أن الاستطراد في الكتاب ليس من قبيل الثرثرة الفارغة ولكن جيء به ليغذي غريزة الاستكشاف والتطلع، أي أنه يؤدي للمتعة والمنفعة، وأن أغلبه وإن كان خروجاً عن الموضوع إلا أنه دُخولٌ إلى (النص) بما يُضفي عليه – أحياناً – من قيم جمالية، أو يُغذِّى ما وراءه من دوافع. وقد استعنت بوجهة النظر النقدية والبلاغية القديمة لأنها الخلفية الثقافية والأدبية التي انطلق من أثنائها الكاتب.

وكان الفصل الرابع عن **(السخرية)** فحدّدت فَهْمي لها باقتراح تعريف مقتضبٍ وَجَّه لي دَفَّة الدراسة وسهل علي تناولها في حجمها (الطبيعي)، ثمَّ فَرَّقتُ على أساسه بينها وبين الفكاهة والهجاء، وَبَيّنْتُ مكانها ومنزلتها من الأساليب الأدبية، وحجمها في الذكريات وطبيعتها، وأسبابها، واتجاهاتها ومحاورها، وأساليبها ووسائطها، وأهدافها التي سعت لتحقيقها، ثم وقفت لمحاكمتها من وجهة نظر التصور الإسلامي للأدب، وتساءلت: هل هي من قبيل السخرية المعيبة خُلقاً، ولماذا؟ هل يميل الباحث إلى قبولها أو ردها؟ وقد تطلب مني ذلك شيئاً من التنظير.

ودرست في الفصل الخامس (**الفكاهة**) حيث اتكأتُ في تحديد مدلولها على تعريف وضعه أو عرَّبه سعيد علوش لأسباب ذكرتها في موضعها، وقد لاحظتُ وجود الفكاهة بكثرة في أدبنا العربي القديم، حتى إن بعض المؤلفين أفردوها بكتب مستقلة، وفي العصر الحديث ازدهرت الفكاهة بالعامية والفصحى، وعمّتْ مناشط الحياة والفن والأدب، وأخذتْ تزحف لتعقد الحياة إلى جميع الفنون بمختلف أشكالها وأجناسها، ومن هذه الكتب كتابنا الذي ندرسه. وبرغم ذلك حرص الباحث على تحديد الأسباب والدوافع الخاصة، التي أسهمت في وجود الفكاهة فيه، وفصّل الحديث عن ألوانها وسماتها العامة، وبيّن أن الفكاهة ليست لغواً ولا قهقهة ولكنّها إجمامُ للقلوب وإراحة للذهن المكدود وبثّ للبهجة والسرور.

أما الفصل السادس فبعنوان (**الصورة**) ناقشتْ فيه الدراسة الصورة في ذكريات علي الطنطاوي من خلال محاور ثلاثة، تناولت في المحور الأول أدوات الصورة ووسائلها كالتشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية، والمجاز، والاستعانة بالشخصية المؤثرة، والإحالة على الخرافات والأساطير، والحكاية الرمزية، والصورة الذهنية المباشرة، والصورة المجلوبة، وفي المحور الثاني: تناولتُ مادتها من جهة النظر إلى الحواس، وفي المحور الثالث درستْ مصادرها ومرجعياتها، ومن خلال كل ذلك عرضتْ إلى طبيعة الصورة لدى الكاتب وأنواعها.

وفي الفصل السابع والأخير جمعتُ ما تناثر من ملحوظات فنية عامة على (**الأسلوب**) لا تدخل تحت عموم الفصول السابقة ولكنها من الأهمية بحيث ينبغي ألا تُغفلها دراسة تتصدى للجانب الفني، وقد أشرت في هذا الفصل إلى خمس عشرة ظاهرة استرعتْ انتباهي في أسلوب الكاتب، وهي: التلقائية والعفوية، السهولة الممتنعة، عذوبة التعبير، التأثر بأساليب القدماء، الانفتاح على التعبيرات المعاصرة، بسط المعاني والأفكار، التكرار، الإكثار من الرجوع، التلاعب بالجمل، الأقوال السائرة، الالتفات بين الأساليب، موسيقية الأداء التعبيري، الميل إلى الاستشهاد، استخدام المحسن البديعي، العناية باللغة. وكان الموجه الوحيد في دراستها من حيث الأُسلوب أو الطول أو القصر أو المنهج – بعد توفيق اللّه – ما توفّر لي من المادة العلمية وما تحظى به من الأهمية.

ثم ختمت البحث بخاتمة ربطتها بالفصول والقضايا التي أثارها أو عرض لها البحثُ؛ لتكون بمنزلة الثمرة التي تستوعب صفوة الشجرة، وخلاصة (**الركض**) والتنقيب عن الحقيقة، ففيها الحقيقة والنتيجة لذلك أذنت لنفسي ببسطها قليلاً، وأنهيتها ببعض المقترحات والتوصيات. ووضعت بعد ذلك ثلاثة مسارد (**كشافات**) مسرداً للمصادر والمراجع والدوريات والمقابلات، ومسرداً للموضوعات، ومسرداً بالأشكال والجداول المستعملة.

وقد رأيت أن أصلح المناهج للوفاء بما تقدم وتحقيق كل المطالب السابقة، هو: المنهج التكاملي[1] الذي يفيد من جميع المناهج التي يحتاج إليها، لأنه الأقدر بالنسبة لموضوع الدراسة؛ فاعتمدتُ على المنهج الوصفي في تقديم الظواهر الفنية وإبرازها للقارئ، حتى يكون على معرفة بها وتصور كامل لها، وحتى يشاركني التفكير والبحث، ولأُعطيه الفرصة – أيضاً – للاختلاف والموافقة. واعتمدت على المنهج التحليلي في تفسيرها ومناقشتها، وبيان أسبابها ومنشئها ودوافعها، والمنهج التاريخي في تتبع تلك الظاهرة عند الكاتب عبر نتاجه الأدبي عامَّة، وعند أسلافه الذين اقتبس عنهم هذه الخصائص أو السمات.

وأفدت من النقد الأدبي والبلاغي القديم في درس وتقويم بعض الأساليب والنماذج الأدبية التي وقعت عليها، ليس لعجز في النقد المعاصر والحديث، ولكن لأن الكاتب انطلق فيها من خلفية ثقافية بلاغية ونقدية قديمة. كما أفدت من معطيات الفكر النقدي الحديث في جوانب أخرى من العمل، وبخاصة من النقد المصاحب للسرديات (الرواية/القصة)، ومن النقد المصاحب لفن السير، ومن المنهج الأيدلوجي/الاعتقادي عند محاكمة و(تقييم) بعض الجوانب الأدبية، وكان يحكمني في ذلك الثقافة الإسلامية التي صيغ تحت مظلتها ونما بعينيها. وأفدت من منهج الموازنة عند المقابلة بين هذه الظاهرة أو تلك عند الأديب نفسه، أو عند غيره في ثقافته أو لغته، والمنهج المقارِن عند مقابلتها بغيرها في أدب أديب في أمة أجنبية.

وقد حرصتُ في كل ما آتي وأدع على ألاّ تنساق الدراسة وراء الأحكام الجاهزة، أو تلك التي لا تستحضر طبيعة الثقافة العربية والمجتمع العربي وقيمهما،

---

(١) قصد الباحث أنّه أفاد من أكثر من منهج حسب الحاجة.

كما حرصت – قدر الاستطاعة – على الدقة ولاسيما في استعمال المصطلحات الأدبية، وفي بيان إطارها الفلسفي المراد استعمالها بشأنه، وشرعيتها لهذا الاستعمال، والحدود التي تبدأ بها وتنتهي عندها، وحين أجد (المصطلح) غير واضح في محيطه الأدبي، أو ملتبساً بغيره أو غير دقيق في الدّلالة على ما تحته أو يداخله شيء من الاضطراب؛ كأن يكون مستعملاً في النقد القديم والحديث استعمالين غير منضبطين ولا متداخلين؛ فإنني أوضح المصطلح وأميزه عن غيره، وأنص على ما أريد به، وأبين كيف أفهمه وأستعمله، وأُشير إلى التّداخُلِ الذي وقع فيه والمعنى الذي أُحيلُ إليه. وأبحت لنفسي أن أصطلح على بعض المصطلحات التي أُريد، لأستغني بها عن التطويل ولكني أحرص على بيان المراد بها بدقة، كل ذلك أسخره للموضوع نفسه، وأسيِّره ليصب فيه، وما أحسب أني فعلت إلا ما يحمد للدراسة؛ فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب – كما يقول الأصوليون.

واجتهدتُ في أن أقف من الكاتب وكتابه موقفاً منصفاً فأشيد بمواطن الجمال والقوة، وأنبه على مواطن الفَجاجة والضعف، لكني لا أغفل الدوافع والمبررات فإن الأدب تعبير عن الأَديب وحاجاته في المقام الأول، وحريٌّ بكل باحث الفطنة لمثل ذلك؛ ولا يكفي فقط، الحكم بجودة أو رداءة فلابد من معرفة سبب ذلك والدافع إليه، فقد يتنكب الأديب سبيلاً قاصداً أو ممتعاً إلى آخر طويلٍ شاقٍ لحاجةٍ في نفسه، أو لفهم خاصٍ به لطبيعة الأدب، أو وظيفة المثقف والأديب، أو لظروف في عصره ومجتمعه، فيتبدل الحكم، ويبدو لنا ما نستحسن به ما كان ظاهره الرداءة، ونرد ما كان ظاهره الوجاهة.

وكنت أستعمل عند الإشارة إليَّ (ضمير المتكلم) المفرد، وما يلحق به كتاء الفاعل، وهمزة المضارعة التي تدل على الفاعل المتكلم، أو ألفاظ (الباحث/الدارس/الدراسة/البحث) مستغنياً بـ (أل) العهدية عن التوضيح. وفي مواضع قليلة جداً يسرع القلم إلى استخدام ضمير الجمع للمتكلم وما يلحق به وليس وراء ذلك إلا العادة علقت بالأسلوب، وإنني لا أقصد به ذاتي فحسب بل أقصد بالضرورة القارئ الذي أفترض أنه يسير معي خطوة خطوة، وكنتُ أُشير إلى الطنطاوي باسمه تارة، وبلقبه (الكاتب) تارة، وبلفظة (الطنطاوي) تارة ثالثة.

ولم أشغل نفسي بالترجمة للأعلام الواردة أسماؤهم في الدراسة، فراراً من تضخم العمل، ولأن ذلك ليس من مهمتها، ولسهولة الرجوع إلى المتقدم منهم، وشهرة أغلب المتأخرين، والمهم هو الرأي نفسه بغض النظر عن قائله. وفي المقابل كرهتُ إهدار حقوقهم فاحتفظت بألقابهم العلمية لاسيما لقب (الدكتور) في صلب الرسالة وفي حواشيها وفهارسها، لأنه حق من حقوق المذكور لا يؤثر إثباته في الحق الذي أنشده، ولا يحجبني عن مناقشته إن كان يحتاج إلى مناقشة.

وملتُ إلى تمثُّل الآراء والتعبير عنها مع الإشارة إليها، للتخفف من النقول عن الآخرين قدر الإمكان، ولكنني أطنبت بالتمثيل والاستشهاد من نصوص الطنطاوي في الذكريات على الموضوع أو القضية المثارة، رغبة في أن يقف القارئ على أكبر قدر من النماذج التي تُمثل أُسلوبه، وتقريراً للموضوع في الذهن، وتزييناً للدراسة بشيء من الأدب يلذ ويخفف من طغيان التحليل والتفسير، وقد أستغني عن الكلمات (قال – يقول – كتب) بوضع شرطة (–) قبل الاستشهاد، حين يصبح التعليق ضرباً من التّطوّل ليس فيه إضافة جديدة.

وأبقيت على النص المنقول أو المقتبس كما هو، وميزته بعلامات التنصيص، ولم أسمح لنفسي بالتدخل فيه بالتغيير أو التعديل، حتى في الرسم الإملائي أو علامات الترقيم مادام له وجه في الاستعمال صحيح، إلا أن يكون في النص خطأ مطبعيٌّ أو سقطٌ أو إحالةٌ إلى مبهم تقدمت الإشارة إليه في النص، ولا يسمح الاستشهاد بذكر الكلام بتمامه وإدارك المعنى وقفٌ على معرفته؛ فإن الباحث يُصوب الخطأ، ويضع الساقط بين معقوفين [ ] وينبه في الحاشية إليه.

أما عند الإحالة إلى المصادر أو المراجع فكنتُ أُرجع إلى المصدر الرئيس وأكتفي به، إلا إن وجد في المرجع بعده زيادةٌ من تفصيل أو تحليلٍ أو رأيٍ فإني أذكر المصدر ثم المرجع، وحين لا أتمكن من العودة إلى المصدر فإنني في الغالب أُشير إليه بالصفحة، ثم أذكر المرجع الوسيط الذي نقلتُ عنه، وأُصدِّر الإحالة بلفظة (نقلاً عن)، تحقيقاً للأمانة العلمية. وعندما تكثر المصادر أو المراجع في الحاشية الواحدة فإني لا أُراعي أي اعتبار في الترتيب. ولم أكن أُسرف في بيان المعلومات في الحاشية اتقاءً للتكرار واكتفاءً بما يأتي من ذكرٍ لها مُفصَّلٍ في الفهارس الأخيرة، فاستغنيت عن ذلك بذكر اسم المؤلف والكتاب أو المقالة

ومكان نشرها، وتركت للقارئ الحرية في مراجعتها موثّقة في الفهرس المخصص للمصادر والمراجع أو الدوريات وفق ما أُحيل إليه في ذيل الصفحة، إلا أن أكون قد اعتمدتُ على طبعة غير مشهورة لكتابٍ طبع محققاً تحقيقاً مشهوراً، أو اعتمدتُ على أكثر من طبعة واحدة للكتاب نفسه أو بأكثر من تحقيق؛ فإني أُميّز الكتابة عند الإحالة بإيجاز شديد.

واكتفيت للإيجاز أيضاً عند الإحالة إلى المرجع السابق بلفظة (السابق) ما لم يُفصل بينهما بفاصل، فإذا فُصل بينهما بفاصل ذكرت المصدر أو المرجع بالطريقة الأولى نفسها، إذ إن اختصار المختصر إبهام، وبالنسبة لذكريات علي الطنطاوي استغنيت بلفظة (الذكريات) أو (ذكرياته) عن ذكرها كاملة لكثرة ترددها ووضوح المراد بها.

ورتبتُ المصادر والمراجع على أسماء المؤلفين وفق الترتيب الهجائي (أ – ب – ت – ث) فإن كان للمؤلف أكثر من كتاب بدأتُ بالأول منها حسب الترتيب الهجائي، وإن كان الكتاب نفسه ورد بأكثر من طبعة أوتحقيق بدأت بما تيسر لي، ووضعت الأسماء كما جاءت عليه في الحاشية حتى لا يضل القارئ، سواءٌ ورد اسمه بالكنية كـ: (أبي حيان – ابن الجوزي)، أو بالشهرة كـ: (السيوطي – البغدادي) أو بالاسم.

وأخيراً أشكر كل من ساعدني على إنجاز هذا العمل، بمشورة أو توجيه أو توفير للمصادر والمراجع بشكل مباشر أو غير مباشر، وأخص بالثناء العاطر بالود والمحبة أستاذي، ووالدي في مقام العلم المشرف على البحث أ. د. حسن بن محمد باجودة، الذي تابعني بعناية ومتابعة دقيقتين، وقرأكل سطر أكتبه كلمةً كلمةً، وأفسح لي في وقته وبين التزاماته ما به – بعون اللّه وتوفيقه – استوى البحث على سوقه، وكلمات الشكر لا تفي بحقه فجزاه اللّه عني خير ما جزى به أستاذاً عن تلميذه. وأشكر جامعة أم القرى وقسم الدراسات العليا العربية بها؛ إذ أتاحا لي فرصة استكمال دراساتي العليا، والشكر البالغ للوالدين على تربيتهما وحفظهما وتشجيعهما وكلمات الشكر لا تفيهما حقهما متعهما اللّه بالصحة والعافية. والشكر والعرفان لزوجتي العزيزة، ولبنياتي جود وشموخ وإيثار لسماحهم لي بالاستئثار بوقتي مدَّة إعداد الدراسة.

ختاماً أودُّ التأكيد: أن هذا البحث – برغم اجتهادي في تحري الحق – ليس أكثر من وجهة نظر أو قراءة أُولى؛ سواءٌ في بنائه وخطته، أو أسلوبه وإجراءاته، أو في أدواته ووسائله، أو نتائجه وأحكامه، فالبحث ابن تصور بشري محكوم بظروف وملابسات وزمان، ورؤية تتسع بالمداومةِ والمطالعة، فليقرأ على أنه تجربة أُولَى لصاحبه، ما وافق الحق منه أَوْلى بالموافقة، وما جانبه وخالفه؛ فأستغفر اللَّه منه وأُعيذُ نفسي من الإصرار عليه متى ظهر لي الحق، وأسأل المخالف أن يجد لي فيما منح نفسه من الحق بالمخالفة عذراً فيما خالفته إليه أو فيه.

واللَّه خيرٌ معيناً وموفقاً ومسدداً وصلى اللَّه وسلم على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد للَّه رب العالمين.

الباحث

أحمد بن علي أحمد آل مريع

مكة المكرمة- العزيزية

غرة المحرم ١٤١٩هـ